

أثر السياق ودلالته في الاستنباط عند المفسرين - ابن عطية الأندلسي نموذجاً -

## The Effect of context and its connotation in deducing for interpreters - Ibn Attia Al Andaluci as a model -

فاطمة قايدي<sup>1\*</sup>، أ.د. رضا دغبار<sup>2</sup>

<sup>1</sup>جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، (الجزائر) f.kaidi@univ-alger.dz

<sup>2</sup>جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، (الجزائر) r.deghbar@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/05/19 تاريخ القبول: 2022/10/06 تاريخ النشر: 2022/12/30

### ملخص:

لم يزل موضوع السياق ودلالته يستقطب اهتمام اللغويين والمفسرين والأصوليين على حدّ سواء؛ لما له من دور كبير في فهم كلام الله تعالى، والسيّاق من الأدوات الموصلة إلى فهم المراد من كلامه عزّ وجل؛ ومن الآليات التي يحتاج إليها كل فنّ من فنون العربية أو ما تعلق منها بعلوم القرآن الكريم خاصّة وعلوم الشريعة عامّة كالتفسير والفقه وعلم أصول الفقه وغيرها. والعلوم المتعلّقة بالقرآن الكريم متكاملة فيما بينها ومتداخلة؛ إذ بينها علاقة تفاعل وتأثير وتأثر، والاستنباط من القرآن الكريم أحد هذه الفنون.

وجاءت هذه الدراسة محاولة الكشف عن أثر السيّاق ودلالته في استنباط المعاني والأحكام الشرعية من القرآن الكريم، وذلك عند أحد أعمدة التفسير القدماء وهو ابن عطية الأندلسي في تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"؛ ويندرج كل هذا ضمن محور أساسي وهو مدى تأثير السيّاق في الاستنباط من القرآن الكريم، ومدى فاعلية ذلك في استنباطات ابن عطية الأندلسي من خلال تفسيره "المحرر الوجيز".

ولنلخص إلى أنّ للسياق بالغ الأثر في الاستنباط من القرآن الكريم؛ بل هو من الدلالات الموصلة إليه والتي تُمكن من الفهم الصحيح لما خفي من المعاني والفوائد التي يزخر بها كتاب الله تعالى. ولم يغفل ابن عطية أهمية السيّاق؛ حيث احتكم إليه في مواضع كثيرة من تفسيره.

\* المؤلف المرسل

**Abstract :**

The subject of context and its connotation still lures linguists, interpreters and Islamic Jurisprudence (fiqh) scholars due to its important role in understanding God's words. Context is an instrument employed to understanding the intended meaning of God's words.

This study explores the effectiveness of context and its connotation in deducing meaning and rules from the Holy Quran, with reference to Ibn Attia Al-Andalucía's book « a Concise Treatise in Interpreting the Holy Quran », which is the centerpiece of the book , It concludes that context has a considerable effect in deducing meanings from the holy Quran, Actually, it's a key ingredient conducive to proper understanding of hidden meanings and Islamic Shari 'a rules which the holy Quran abounds with, Ibn Attia was cognizant of the importance of context and recurred to it in numerous instances in his interpretation of the Quran.

**Keywords :** context ,deduction, interpretation, connotation, Holy Quran.

## 1. مقدمة:

انصبَّ اهتمام الباحثين قديماً وحديثاً بالقرآن الكريم؛ فانكبوا عليه حفظاً ودراسة وبيانا لمعانيه ولدلالاته؛ إذ به يستدل الفقيه والأصولي والمفسر واللغوي؛ فلا يمكن فهم معاني القرآن وتراكيبه بعيداً عن اللغة العربية وعن السياق ودلالاته؛ سواء ما تعلّق بالسياق الخارجي للآية والمتمثّل في أسباب النزول أو السياق الداخلي وهو ما يعرف بالسياق اللغوي.

وقد كان السياق اللغوي أداة لكثير من المفسرين في استنباط مكونات القرآن والكشف عن أسرار معانيه، ومنهم ابن عطية الأندلسي في تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"؛ فجاءت هذه الوريقات البحثية للكشف عن مدى اهتمام ابن عطية الأندلسي بالسياق وتوظيفه له في استنباطاته.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تُعنى بالقرآن الكريم وما يتعلّق به من الاستنباط الذي ضمّنه المفسرون في كتبهم، والدلالات التي من خلالها يمكن للمفسرين استنباط المعاني والأحكام من القرآن الكريم، وأهمّها دلالة السياق، فهذه الدراسة تحاول إعطاء صورة عامّة عن أثر السياق في استنباطات ابن عطية الأندلسي المفسر الجليل، المعروف بـ القاضي: أبو محمد (ت: 542هـ).

ويعتبر السياق من أبرز المحاور الدلالية في بيان المراد من النص القرآني، خاصة مع الانفتاح الدلالي وما تُعنى به الدراسات اللغوية المعاصرة، كما أنّ موضوع الاستنباط من الموضوعات القديمة الوجود الحديثة التأسيس والدراسة؛ فقد اشتغل به الدارسون حديثاً ولاسيّما أصحاب الدراسات العلمية الأكاديمية، وبالرغم من اهتمام المفسرين القدماء بالاستنباط في تفسيراتهم؛ إلاّ أنّه ظلّ ماثلاً في بطون كتب التفسير؛ فهو من علوم القرآن الكريم المتعلقة بعلم التفسير.

## أهداف الدراسة:

تحاول هذه الدراسة تجلية المفاهيم والمسائل الآتية:

- عرض ترجمة مختصرة لابن عطية الأندلسي.
- تتبّع مفهوم السياق في المعاجم اللغوية وفي اصطلاح العلماء والدارسين.
- مفهوم الاستنباط في اللغة والاصطلاح.
- دراسة نماذج من استنباطات ابن عطية الأندلسي بدلالة السياق.

## الإشكالية:

- إنّ طبيعة هذا الموضوع جعلت الإشكالية تنحصر في أثر السّياق ودلالته لبيان مدى اهتمام المفسّرين بالسّياق في استنباطهم، وعليه تكون الإشكالية كالآتي:
- ما مفهوم السّياق وما هي دلالاته؟ وإلى أيّ مدى يمكن للسّياق أن يكون دلالة على استنباطات المفسّرين؟
  - وهل وظّف ابن عطية دلالة السّياق في استنباطاته من خلال كتابه "المحرر الوجيز"؟
  - وهل كان للسّياق أثر في ذلك؟

## الفرضيات:

تضعنا إشكالية هذه الدّراسة أمام الفرضيات الآتية:

- أ- السّياق في القرآن الكريم أو ما يعرف بالسّياق القرآني له معان مختلفة.
- ب- تأثّر المفسّرون بدلالة السّياق في تفسيراتهم ووظّفوا هذه الأخيرة في استنباطهم من القرآن الكريم.
- ج- ابن عطية الأندلسي من أشهر المفسّرين اهتماما بالاستنباط من القرآن الكريم وللسياق أثر في استنباطاته من خلال تفسيره الموسوم بـ "المحرر الوجيز".

## المنهج المتّبع في الدّراسة:

لقد اعتمدت هذه الدّراسة على المنهج الوصفي التحليلي، حيث عملت على جمع المادة العلمية المتعلّقة بالموضوع ثمّ تقديم قراءة معجمية واصطلاحية لبعض المصطلحات الأساسية في البحث، كما تتبعت بعض مواضع ورود استنباطات ابن عطية في تفسيره "المحرر الوجيز" وعرضها وتحليلها.

أهداف الدّراسة: تهدف هذه الدّراسة إلى:

- أ - تقديم لبنة في الدّراسات والبحوث المتعلّقة بالقرآن الكريم كلام ربّ العالمين، بالتدبر في معاني آياته وما تتضمّنه من أسرار وحكم.
- ب - إظهار مفهوم السّياق ودلالته ومفهوم الاستنباط من القرآن الكريم.
- ج - إبراز أهمية السّياق كأصل من أصول فهم المعاني القرآنية، وطريق موصل إلى تدبّرها وفهمها فهما صحيحا.

أثر السّياق ودلالته في الاستنباط عند المفسّرين - ابن عطية الأندلسي نموذجاً -

د - الحاجة ماسّة للاهتمام بالسّياق القرآني في هذا العصر أكثر من سابقه للردّ على المشكّكين في التّصوص الشّرعية لنقض عراهم وتفنيدهم شبههم.

هـ - بيان ما للسّياق من أثر في استنباط المعاني والأحكام من القرآن الكريم عند أحد أعمدة التّفسير وهو ابن عطية الأندلسي.

خطة البحث:

مقدمة...

التّعريف بابن عطية الأندلسي

مفهوم السّياق في اللّغة والاصطلاح

تعريف دلالة السّياق

تعريف الاستنباط

نماذج من استنباطات ابن عطية الأندلسي - رحمه الله - بدلالة السّياق

خاتمة.

## 2. التعريف بابن عطية الأندلسي:

ابن عطية الأندلسي: هو المفتر الجليل القاضي أبو محمد: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية المحاربي الداخل.

فقيه حافظ محدث مشهور أديب نحوي شاعر بليغ كاتب؛ ألّف في التفسير كتابا ضخما أرى فيه على كل متقدّم، وُلد سنة ثمانين وأربعمائة. اعتنى به والده ولحق بالكبار وطلب العلم وهو شاب، وكان يتوقّد ذكاءً.

من شيوخه: والده الحافظ الناقد الجوّد أبو بكر غالب بن عبد الرحمن؛ حيث كان هذا الأخير اللبنة الأولى في تلقيه العلوم والمعارف.

أمّا من أشهر مؤلفات ابن عطية؛ فنذكر: كتاب الوجيز في التفسير؛ والذي يُعد من أشهر كتب التفسير؛ وليس هو من سمّاه باسمه المعروف، وإمّا الذي أطلق عليه اسم "المُحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" هو كاتب حلبي يدعى "ملا" (ت. 1067هـ).

وقد توفي ابن عطية -رحمه الله- في ليلة الخامس عشر من رمضان سنة 542هـ، وقيل: 546هـ ودفن بلورقة؛ وهي مدينة في شرق الأندلس بين غرناطة ومرسية.<sup>(1)</sup>

## 3. مفهوم السياق في اللغة والاصطلاح:

أمّا في اللغة:

قال الجوهري: "السّاق: ساق القدم والجمع سوق مثل أسد وأسد، وسيقان وأسوق. وامرأة سواق: حسنة الساق. ورجل أسوق بين السّوق. والأسوق أيضا: الطويل السّاقين.

ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية. وساق الشجرة: جذعها. قال الكميّ: تغريد ساق على ساق تجاوبها من الهواتف ذات الطوق والعطل عنى بالأول الورشان وبالثاني ساق الشجرة. وقوله تعالى: (يوم يكشف عن ساق) أي عن شدة، كما يقال: قامت الحرب على ساق. ومنه قولهم: ساوقه، أي فاخره أينا أشد. وساقه الجيش: مؤخره. والسّوق يذكر ويؤنّث. وسوق الحرب: حومة القتال. وتسوق القوم، إذا باعوا واشتروا"<sup>(2)</sup>

وجاء في تاج العروس: "...من المجاز: ساق المريضُ يَسُوْقُ سَوَقًا وَسِياقًا ككِتاب: إذا شَرَعَ فِي نَزَعِ الرُّوحِ كَذَا فِي العُبابِ، وافْتَصَرَ الجَوْهَرِيُّ عَلَى السِّيَاقِ، ويُقالُ أيضًا: ساقَ بِنَفْسِهِ سِياقًا نَزَعَ بِهَا عِنْدَ المَوْتِ، وتقولُ: رأيتُ فُلانًا يَسُوْقُ سُووقًا كعُعودٍ، وقالَ الكِسائي: هُوَ يَسُوْقُ نَفْسَهُ، وَيَفِيضُ نَفْسَهُ، وقالَ ابنُ شَمَيْلٍ: رأيتُ فُلانًا بالسُّوقِ، أي: بالموتِ يُساقُ سَوَقًا، وإنَّ نَفْسَهُ لتَساقُ وأصلُ السِّيَاقِ: سواق، فُلبِتَ الوَوايَا لكَسرةِ السَّيْنِ.

وساقَ فُلانًا يَسُوْقُهُ سَوَقًا: أصابَ ساقَهُ... وَمِنَ المِجازِ: ساقَ إلى المِرْأَةِ مَهْرَها وصَداقَها سِياقًا: أَرْسَلَهُ، كَأَساقَ وَإِنْ كانَ دَراهِمَ أو دَنائِرَ لَأَنَّ أَصْلَ الصَّداقِ عِنْدَ العَرَبِ الإِبِلَ، وَهِيَ التِّيَساقُ، فَاسْتُعْمِلَ ذَلِكَ فِي الدَّرْهَمِ وَالدِّينارِ وَغَيرِهِما."<sup>(3)</sup>

فالسِّيَاق مأخوذ من الجذر اللُّغوي (س و ق): وسواق، بكسر السَّيْنِ أبدلت الواو ياء ملاءمتها الكسرة، والسِّيَاق لم يخرج عن الحقل الدَّلالي للتتابع والاتصال واللحاق.

### وأما في الاصطلاح:

فالسِّيَاق ليس وليد الدَّراسات الحديثة فحسب؛ بل اهتم به القدماء كذلك فمؤلِّفاتهم زاخرة بذلك؛ سواء اللُّغوية منها أم البلاغية وحتى الأصولية كذلك؛ على اختلاف تسمياتهم له وتعبيرهم عنه، كما وردت له تعريفات كثيرة؛ منها:

ما ذكره الشَّاطِبي - رحمه الله - بقوله: "المسافات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنَّوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، فالَّذي يكون على بال من المستمع والمتفهم والالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها."<sup>(4)</sup>

فقد استخدم الشَّاطِبي في تعريفه؛ ما يقابل لفظ السِّيَاق كلفظ الأحوال، مقتضى الحال، أول الكلام وآخره. وهي مرادفات للفظ السِّيَاق. وهذا المفهوم للسِّيَاق هو ما تداوله علماء الأصول، وقد أشار إليه ابن تيمية - رحمه الله - فهو يرى أنَّ فهم معاني الآيات بعيدا عن سياقها الَّذي وردت مَّا يوقع في الغلط والانحراف؛ إذ يقول: "فمن تدبَّر القرآن وتدبَّر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن؛ تبين له المراد وعرف الهدى والرَّسالة وعرف

السداد من الانحراف والاعوجاج. وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يُبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لاسيما كثير ممن يتكلّم فيه بالاحتمالات اللغوية<sup>(5)</sup> كما عرّفه ردّة الله بقوله: "... يمكن تلخيص القول في مفهوم السياق في التّراث العربي في النّقاط الثّلاث التّالية: الأولى: أنّ السياق هو الغرض؛ أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام، وهو واحد من المفاهيم التي عبّر بلفظ السياق (السّوق) عنها، وكان استعمالها بهذا منضبطا عند الأصوليين [...] الثانية: أنّ السياق هو الطّروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النّص أو نزل أو قيل بشأنها، وأوضح ما عبّر به عن هذا المفهوم لفظا الحال والمقام. الثالثة: أنّ السياق هو ما يُعرف الآن بالسياق اللّغوي الذي يمثله الكلام في موضع النّظر أو التّحليل، ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام."<sup>(6)</sup>

وفي كلام ردة الله إشارة إلى أن التّراث العربي كان له اعتناء بالسياق وإن لم يُسمّم بهذا اللفظ، ونقول: أنّ الاعتناء به في الدّراسات الحديثة قد بدّ اعتناء السابقين، ولا شك أنّ السياق من أساليب العربية التي وردت في القرآن الكريم، ولم يغفلها المفسّرون في ممارساتهم. وعليه فللسياق مفاهيم مختلفة؛ لا تخلو من الانتقاد واستدراك بعضها على بعض كغيرها من المفاهيم في الحقول المعرفية، ونخلص إلى أنّ السياق هو: ما يُفهم من الكلام بالنّظر إلى ما يتصل به من الطّروف والأحوال ومما تقدّم من الكلام أو ما تأخّر عنه.

#### 4. تعريف دلالة السياق:

قبل الوقوف عند تعريف دلالة السياق؛ بدا لي ضرورة تفكيك هذا المركب الإضافي، وتعريف كل مفردة على حدا؛ أما السياق فقد سبق تحديده معناه، وعليه سنعرض تعريفا للفظ الدّلالة، والغرض من عرض هذه التعريفات تقريب المعنى للأفهام:

#### 1.4 تعريف الدّلالة:

أ. الدّلالة لغة: جاء في أساس البلاغة للزّمخشري: "دلّه على الطّريق، وهو دليل المفازة وهم أدلاؤها، وأدلت الطّريق: اهتديت إليه. وتدلتّ المرأة على زوجها، ودلتّ تدل، وهي حسنة الدّلّ والدّلال [...] وأدلّ على قريبه وعلى من له عنده منزلة، وأدل على قرنه، وهو مدلّ بفضله وشجاعته، ومنه أسد مدلّ. ولفلان عليّ دلال ودالة، وأنا أحتمل دلالة"<sup>(7)</sup>

وقد ورد في مختار الصحاح للجوهري أن: "الدليل ما يستدل به والدليل الدال وقد دلّه على الطريق يدلّه بالصّم دلالة بفتح الدال وكسرهما ودلولة بالصّم، والفتح أعلى. ويقال: أدل فأمل والاسم الدّالة بتشديد اللام. وفلان يدل بفلان أي يثق به. قال أبو عبيد: الدّل قريب المعنى من الهدى وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشّمائل وغير ذلك. وتدلّل الشيء تحرك متديلاً"<sup>(8)</sup>

فالمعنى المتداول في المعاجم العربية أن أصل الدّالة يدل على التّبيان والتّسديد والإرشاد.

ب. **الدّالة اصطلاحاً:** للدّالة معان متعدّدة؛ وقد عرّفها العلماء والدارسون كل حسب ميدانه وتخصّصه، ولعلماء الأصول تفصيلاً في أقسامها ولاعتبارات متنوعة؛ لا يسعنا المقام لبسطها، وإنّما نكتفي بعرض بعض المفاهيم؛ فمثلاً:

عرّفها الجرجاني بأنّها: "هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدّال، والثاني هو المدلول"<sup>(9)</sup>

وعرّفها ردة الله بن ردة الطّليحي بقوله: "هي استعمال الدّال من لفظ أو غيره لبيان المراد من المتكلم، والوصول إليه من السّامع."<sup>(10)</sup>

المقصود بالدّالة: ما يدل على غيره؛ أي ما يُوصل إلى الفهم؛ فماهيته الإيصال إلى الغرض المقصود من الكلام، ويُطلق على علم الدّالة أيضاً علم المعنى.

## 2.4. تعريف دلالة السياق:

لدلالة السياق تعريفات كثيرة؛ نكتفي بما ذكره الزركشي بأن: "دلالة السياق فإنّها تُرشّد إلى تبيين المُحمّل والقطع بِعَدَمِ احْتِمَالِ غَيْرِ المراد وَتَحْصِصِ العامِّ وَتَقْيِيدِ المُطلقِ وَتَنَوُّعِ الدّالّةِ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ القرائِنِ الدّالّةِ عَلَى مرادِ المُتَكَلِّمِ فَمَنْ أَهْمَلَهُ غَلَطَ فِي نظيره وَغَالَطَ فِي مُنَاطَرَاتِهِ"<sup>(11)</sup>؛ ومنه فدلالة السياق هي القرينة التي تدل على المعنى المراد من تركيب الكلام؛ وعلاقة لاحقه بسابقه.

لا يمكن تحديد معنى النّص وفهمه إلاّ بمراعاة ما قبله وما بعده؛ أي معرفة الطّروف المحيطة بالكلام، والإمام بقرائن الأحوال. وهذه القرائن ممّا يُعين المفسّر على استنباط المعاني

الخفية من القرآن الكريم؛ إذ أنّ الكثير من الفوائد والأحكام والنكت التي تزخر بها آيات القرآن الكريم لا يمكن التّفنّن إليها إلا بإعمال الفكر وجودة الفريضة؛ وللسّياق بالغ الأثر في هذه العملية الذهنية.

## 5. تعريف الاستنباط:

### 1.5. الاستنباط في اللّغة:

جاء في معجم العين في مادة (نبط): "التَّبَطُّ: الماء الدّبي ينبط من قعر البئر إذا حفرت، وقد نبط ماؤها ينبط نبطا ونبوطا، وقد أنبطنا الماء؛ أي: استنبطناه، يعني: انتهينا إليه. والتَّبَطُّ: ما يتحلّب من الجبل كأنه عرق يخرج من أعراض الصّخر. والتَّبَطُّ والتَّبَطَّة: بياض يكون تحت إبط الفرس، وكل دابة وبهيمة، وربما عرض حتى يغشى البطن والصّدر...؛ أي: [البياض] محيط بجوزها، وهو الصّدر، فإن كانت بياض فهي نبطاء بسواد، وإن كانت سوداء فهي نبطاء بياض... والتَّبَطُّ والتَّبِيطُ: كالحبش والحبيش في التّقدير، وسموا به، لأنهم أول من استنبط الأرض، والنسبة إليهم: نبطي، وهم قوم ينزلون سواد العراق، والجميع: الأنباط" (12)

وجاء في مختار الصّحاح للجوهري: "تَبَطَّ الْمَاءُ نَبَعًا وَبَابُهُ دَخَلَ وَجَلَسَ. وَالِاسْتِنْبَاطُ: الْاسْتِخْرَاجُ. وَالتَّبَطُّ بِفَتْحَتَيْنِ وَالتَّبِيطُ قَوْمٌ يَنْزِلُونَ بِالْبَطَائِحِ بَيْنَ الْعِرَاقَيْنِ وَالْجَمْعُ أَنْبَاطٌ؛ يُقَالُ: رَجُلٌ نَبَطِيٌّ وَنَبَاطِيٌّ وَنَبَاطٌ مِثْلُ يَمَنِيٍّ وَيَمَانِيٍّ وَيَمَانٍ." (13)

وعليه فالاستنباط يعني استخراج الشيء بجهد ومشقة، وهو من مادة نبط؛ التي تطلق على عدّة معاني منها؛ الماء الدّبي يخرج من باطن الأرض، وتطلق على البياض الدّبي يكون تحت إبط الفرس، وأيضا يطلق على قوم.

### 2.5. الاستنباط في الاصطلاح:

لقد عرّف العلماء الاستنباط قديما وحديثا بتعريفات متعدّدة ومنها ابن قيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين عن ربّ العالمين؛ قال: "الِاسْتِنْبَاطُ اسْتِخْرَاجُ الْأَمْرِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْفَى عَلَى غَيْرِ مُسْتَنْبِطِهِ" (14)

أثر السّياق ودلالته في الاستنباط عند المفسّرين - ابن عطية الأندلسي نموذجاً -

وقال في موضع آخر: "الاستنباط هو استخراجه الشّيء الثّابت الخفيّ الذي لا يعثر عليه كل أحد" (15)

من خلال التعريفين يظهر جلياً أن الاستنباط عند ابن القيم يتضمّن أمرين، وهما: استخراج الأمر الخفي: وفيه بيان للفرق بينه وبين التّفسير الذي يهتم بما ظهر من معاني النّصوص؛ بينما يهتم الاستنباط بما خفي من معاني. لا يعثر عليه كل أحد: فالاستنباط غير متاح لكل مفسّر؛ إلّا لمن وهبه الله تعالى قوة الدّهن وجوده القويحة.

وعرّفه د. مساعد الطّيار بأنّه: "ربط كلام له معنى بمدلول الآية بأي نوع من أنواع الرّبط؛ كأن يكون بدلالة إشارة أو دلالة مفهوم، أو غيرها" (16)، وهذا الذي يقصده علماء الأصول من الاستنباط وما يعتمدوه من دلالات أصولية.

وعليه فالاستنباط من الصّق العلوم بعلم التّفسير لأنّ المفسّر لا يمكنه الاستنباط من النّص القرآني إلّا بعد تفسيره ووضوح معناه، إذ لا يمكن الاستنباط من نص غير واضح الدّلالة، وبالتالي فهو أيضاً من الصّق العلوم بعلم الدّلالة، فقد يكون النّص القرآني يحمل دلالات خفية فمهمّة الاستنباط إظهار تلك المعاني الخفية التي قد لا تظهر لأي مفسّر.

## 6. نماذج من استنباطات ابن عطية الأندلسي - رحمه الله - بدلالة السّياق:

يهتم الاستنباط بالمعاني الخفية للنّصوص القرآنية؛ حيث يمتطي المستنبط مطية تتمثل في مجموعة من الدّلالات والتي من أشهرها دلالة السّياق؛ هذه الأخيرة التي اهتم بها المفسّرون كثيراً قديماً وحديثاً، ومنهم ابن عطية الأندلسي؛ ففي مواضع كثيرة من تفسيره يذكر لنا فوائد مستنبطة استناداً إلى دلالة السّياق؛ وسواء صرّح بذلك في كلامه أم لم يصرّح، ومن خلال الاطّلاع على بعض استنباطاته في تفسيره تجلّى لنا ذلك في مواضع مختلفة، سأكتفي ببعض النّماذج منها.

## المثال الأول:

في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْلَمُونَ صَبِيرٌ﴾ (البقرة: 233)

قال ابن عطية -رحمه الله-: "الأمر على الوجوب لبعض الوالدات والأمر على جهة الندب والتخيير لبعضهن، فأما المرأة التي في العصمة فعليها الإرضاع وهو عرف يلزم إذ قد صار كالشروط إلا أن تكون شريفة ذات ترفه فعرف أتمها لا ترضع وذلك كالشروط وهذه الآية هي في المطلقات" (17).

استنبط ابن عطية من هذه الآية أنّ هذه الأحكام المتعلقة بالرضاعة هي خاصة بالمطلقة؛ وهي التي خارج عصمة الزوج؛ إذ لها الخيار في الرضاع، وأما التي في عصمته فهو في حقها كالشروط وإلى هذا الرأي ذهب بعض المفسرين؛ إذ المسألة مما استعصى على المفسرين بيانها، وقد وافق ابن عاشور هذه الفائدة المستنبطة فقال: "والوالدات عام لأنه جمع معرّف باللام، وهو هنا مراد به خصوص الوالدات من المطلقات بقريئة سياق الآي التي قبلها من قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء﴾ (البقرة: 228) ولذلك وصلت هذه الجملة بالعطف للدلالة على اتحاد السياق" (18)

والملاحظ على كلامه أن السياق دلّ على أنّ المقصود من الوالدات: المطلقات؛ إذ يقول: "والوالدات معناه: والوالدات منهن، أي من المطلقات المتقدم الإخبار عنهن في الآي الماضية، أي المطلقات اللائمي لهن أولاد في سن الرضاعة، ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا يقع بين الأب والأم إلا بعد الفراق، ولا يقع في حالة العصمة إذ من العادة المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أن الأمّهات يُرضعن أولادهن في مدة العصمة، وأنهن لا تمتنع منه من تمتنع إلا لسبب طلب التزوج بزواج جديد بعد فراق والد الرضيع فإن المرأة المرضع لا يرغب الأزواج منها لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها في أحوال كثيرة". (19)

## المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: 3)

قال ابن عطية: "اللغو سقط القول وهذا يعم جميع ما لا خير فيه ويجمع آداب الشرع".<sup>(20)</sup> الذي يبدو من كلام ابن عطية أنّ اللغو هو سقط القول؛ أي الكلام القبيح الذي لا تقبله الفطرة السليمة كالسب والفحش وجميع ما لا خير فيه، وقد استنبط من الآية بيانا للآداب الشرعية التي يحث عليها ديننا، وإن لم يكن مصرح بها في الآية؛ إلا أنّ في السياق دليل على ذلك.

كما أشار إلى ذلك أيضا ابن عاشور بقوله: "والإعراض عن جنس اللغو من خلق الجد ومن تخلق بالجد في شؤونه كملت نفسه ولم يصدر منه إلا الأعمال النافعة، فالجد في الأمور من خلق الإسلام [...] واعلم أنّ هذا أدب عظيم من آداب المعاملة مع بعض الناس وهم الطبقة غير المحترمة لأنّ أهل اللغو ليسوا بمرتبة التوقير، فالإعراض عن لغوهم ربه عن التسفل".<sup>(21)</sup>

فالإعراض عن اللغو وعن مجالسة أهله من الآداب الشرعية العامة التي حثّ عليها الدين الإسلامي، وفي المثال يظهر قوة ذهن ابن عطية وكيف توصل إلى استنباطه بعبارات دقيقة موجزة.

## المثال الثالث:

قال تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نَعْمَىٰ آلِيَّ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 47)

قال ابن عطية: "قد تكرّر هذا النداء والتذكير بالتعeme، وفائدة ذلك، أنّ الخطاب الأول أن يكون للمؤمنين ويصح أن يكون للكافرين منهم، وهذا المتكرّر إنّما يكون للكافرين؛ بدلالة ما بعده وأيضا فإنّ فيه تقوية التوقير وتأکید الحض على ذكر أيادي الله وحسن خطابهم بقوله وفي الكلام اتّساع، لأنّ تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم"<sup>(22)</sup>

استفاد ابن عطية من سياق الآية الكريمة أنّ تفضيل الله تعالى لأبائهم وأسلاف بني إسرائيل وهم الأنبياء، هو تفضيل لأبنائهم وجميع خلفهم؛ أي أنّ هذا التفضيل انتقل إلى

ذريتهم. وفي معنى هذا التفضيل يقول ابن عاشور: "ومعنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من الحماد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم وهي شرف النسب وكمال الخلق وسلامة العقيدة وسعة الشريعة والحرية والشجاعة، وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم" (23)

### المثال الرابع:

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِهِمْ بِحَايَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأنعام: 35)

قال ابن عطية: "والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجرى بحسب النبيين، وإنما جاء بحسب الأمرين الذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، وبين أن الأمر الذي نهي عنه محمد أكبر قدر وأخطر واقعة من الأمر الذي واقعه نوح" (24)

وجاء كلام ابن عطية في هذا الموضوع عن قوله تعالى: ﴿ فلا تكوننَّ من الجاهلين ﴾، فجاء النهي في الآية موجهاً للنبي محمد ﷺ، وقد اتفق هذا النهي مع ما نهي عنه نوحا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ كَلِمَةٍ أَهْلِكَ ۚ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۚ فَلَا تَسْتَأْذِنُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (هود، 46)

وسياق الآية جعل ابن عطية يستفيد من الآية أن ما نهي عنه محمدًا أخطر وأعظم مما نهي عنه نوحا عليه السلام.

### المثال الخامس:

في قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۚ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: 264)

قال القاضي أبو محمد: "وهذا أبين من الذي رجح الطبري، وليست هذه الآية بمثل آخر لنفقة الرياء، هذا هو مقتضى سياق الكلام، وأما بالمعنى فيغير هذا السياق فتشبه حال كل منافق أو كافر عمل وهو يحسب أنه يحسن صنعا، فلما جاء إلى وقت الحاجة لم يجد شيئا" (25)

أثر السياق ودلالته في الاستنباط عند المفسرين - ابن عطية الأندلسي نموذجاً -

أراد ابن عطية أن يبين أنّ سياق الآية لا يوحي بأنّ في الآية نهي عن نفقة الرّياء، وهو بهذا يخالف ما ذهب إليه الطّبري. وقد وافقه في ذلك الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور - رحمه الله -؛ حيث قال: "ولما حذر الله المتصدّق من أن يؤذي المتصدّق عليه علم أنّ التّحذير من الإضرار به كشمته وضربه حاصل بفحوى الخطاب لأنه أولى بالنهي أوسع الله تعالى هذا المقام بيانا وترغيبا وزجرا بأساليب مختلفة وتفننات بديعة فنبهنا بذلك إلى شدّة عناية الإسلام بالإنفاق في وجوه البر والمعونة وكيف لا تكون كذلك وقوام الأمة دوران أموالها بينها، وأنّ من أكبر مقاصد الشّريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة بين رعي المنفعة العامّة ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه.." (26)

ولا شك أنّ التّحذير في الآية من المرنّ والأذى؛ يقصد به أذية المتصدّق عليه كضربه وإهانته وليس المقصود نفقة الرّياء، والله أعلم.

### خاتمة:

- خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، والتي تبرز أثر السياق ودلالته في استنباطات ابن عطية الأندلسي، ومن أبرز النتائج ما يأتي:
- 1- السياق من الدلالات والطرق المعتمدة في الاستنباط من القرآن الكريم، وهو مما شغل اهتمام الدارسين والباحثين من أصوليين ولغويين وغيرهم.
  - 2- الاستنباط بمعناه اللغوي والاصطلاحي يتضمّن استخراج باطن الشّيء بجهد وقوة.
  - 3- للاستنباط علاقة وطيدة بالسياق؛ فإدراك المعاني الخفية يحتاج إلى معرفة الظروف المحيطة بالكلام.
  - 4- لم يكن الاهتمام بالسياق محصوراً عند اللّغويين والأصوليين فقط؛ وإنما بلغ ذلك المفسرين قديماً وحديثاً، فكان اهتمام ابن عطية الأندلسي بالسياق بارزاً في تفسيره "المحرر الوجيز"؛ وقد جعله مطيّة إلى استنباط المعاني الخفية.
  - 5- كما أنّ الاهتمام بالاستنباط ودلالته قد سبق إليه القدامى قبل المتأخرين.
  - 6- من خلال عرض أمثلة من استنباطات ابن عطية تظهر ما اتّصف به -رحمه الله- من قوة الدّهن وجودة الفكر، حيث توصل إلى معان خفية لم يسبقه إليها غيره.
  - 7- لم يتوقّف المفسّرون عند حدود بيان معاني الآيات القرآنية، وإنما تعدّى ذلك عند أغلبهم إلى بيان المعاني المستنبطة بدلالات متنوعة والتي منها السياق.
  - 8- الاهتمام بالسياق في العصر الحاضر ممّا يعين على الرّد على العقلايين وما يشيرونه من شكوك حول القرآن الكريم والسنة النبوية؛ إذ لا يمكن فهم الآية القرآنية مجردة عن سياقها الذي وردت فيه؛ لأنّ ذلك ممّا يوقع في الغلط والباطل.

الموامش:

- <sup>1</sup> جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص 73. أبو جعفر الصّبي، بغية الممتسن في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص 389. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، ج1، ص 29. بتصرف.
- <sup>2</sup> الجوهري، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، ج4، ص 1498 - 1499.
- <sup>3</sup> الرّيدي، تاج العروس، ج25، ص 475.
- <sup>4</sup> الشّاطبي، الموافقات، ج4، ص 266.
- <sup>5</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج15، ص 94.
- <sup>6</sup> ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّليحي، دلالة السّياق، ص 50 - 51.
- <sup>7</sup> الرّزخشري، أساس البلاغة، ص 295.
- <sup>8</sup> الجوهري، مختار الصّحاح، ص 106.
- <sup>9</sup> الجرجاني، التعريفات، ص 104.
- <sup>10</sup> ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّليحي، دلالة السّياق، ص 30.
- <sup>11</sup> الرّزكشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 200 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج7، ص 439.
- <sup>12</sup> الجوهري، مختار الصّحاح، ص 303.
- <sup>13</sup> ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج1، ص 172.
- <sup>14</sup> ابن القيم، مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ج2، ص 103.
- <sup>15</sup> مساعد الطّيار، مفهوم التّفسير، التّأويل، الاستنباط، التّدبير والمفسّر، ص 160 - 161.
- <sup>16</sup> ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ج1، ص 138.
- <sup>17</sup> ابن عاشور، التّحرير والتنوير، ج2، ص 429.
- <sup>18</sup> ابن عاشور، المصدر نفسه، ج2، ص 429.
- <sup>19</sup> ابن عطية، المحرر الوجيز، ج4، ص 136.
- <sup>20</sup> ابن عاشور، التّحرير والتنوير، ج18، ص 11.
- <sup>21</sup> ابن عطية، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ج1، ص 130.
- <sup>22</sup> ابن عاشور، التّحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص 484.
- <sup>23</sup> ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ج1، ص 360.
- <sup>24</sup> ابن عاشور، التّحرير والتنوير، مرجع سابق، ج3، ص 44.
- <sup>25</sup> ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ج1، ص 360.
- <sup>26</sup>

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - إبراهيم بن موسى بن محمد اللّخمي الغرناطي الشّهير بالشّاطي، ت: 790هـ، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، دار ابن عفان، 1417هـ- 1997م.
- 2 - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، ت: 538هـ، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السّود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1419 هـ - 1998 م .
- 3 - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، المتوفى: 170هـ، العين، تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- 4 - أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ت: 794هـ، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1376هـ
- 5- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي ت: 542هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشّافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية - بيروت ، 1422هـ
- 6 - أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضّبي (المتوفى: 599هـ، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي - القاهرة، 196 م.
- 7- ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّلحي، دلالة السّيباق، المملكة العربية السّعودية، جامعة أم القرى، ط1، فهرسة مكتبة الملك فهد، 1424هـ.
- 8 - زين الدّين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي(ت: 666هـ)، مختار الصّحاح، تح: يوسف الشّيبخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط5، 1420هـ / 1999م.
- 9- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدّين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة، ت: 911هـ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا.
- 10 - علي بن محمد بن علي الزين الشّريف الجرجاني، ت: 816هـ، التّعريفات، تح: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط1، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، 1403هـ -1983م
- 11- محمد الطّاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، التّحريز والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدّار التّونسية للنشر - تونس، 1984 هـ.
- 12- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت: 751هـ،
- أ - إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، تح: محمد عبد السلام إبراهيم، ط1، دار الكتب العلمية - بيروت، 1411هـ
- ب - مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 13 - محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحقّقين، دار الهداية.
- 14 - مساعد الطّيار، مفهوم التّفسير، التّأويل، الاستنباط، التّدير والمفسّر، ط2، دار ابن الجوزي للنشر والتّوزيع، المملكة العربية السّعودية، 1427هـ